الآخر اليهوديّ في رواية" أنا وحاييم" للحبيب السّايح، أبعاد الخير والشّرّ.

The Jewish Other in the Novel "I and Haim" by Habib Sayah, The Dimensions of Good and Evil.

ط.د. مليكة نزليوي/* NEZLIOUI Malika

جامعة مولود معمري تيزي وزو

nezliouimalika@gmail.com

مخبر تحليل الخطاب

تاريخ الإرسال:2021/09/14 تاريخ القبول: 2022/12/30. تاريخ النشر: 2024/01/29

ملخص: نسعى في ورقتنا البحثيّة هذه إلى إبراز المكانة الّتي رسمتها الرّواية المعاصرة للآخر اليهوديّ. ويكون حديثنا هنا عن الأقليّة اليهوديّة في الجزائر أبان ثورة التّحرير، وكشف سرّ علاقة الأنا بالآخر، وكذا المركز بالهامش من خلال فكّ شفرات النّصّ وقراءته في إطاره التّاريخيّ الّذي بناه الكاتب، محاولا كشف ملابسات الأحداث وما أفرزته الثّورة من معطيات تدفع بالقارئ إلى إعادة قراءتها كمنجز حداثيّ، فيحاول بذلك كشف المضمرات والمتواريات النّصيّة الّتي لم يصرّح بها النّصّ.

ارتأينا أن نشتغل في ورقتنا البحثيّة هذه على إحدى الأعمال الرّوائيّة للكاتب الجزائريّ" الحبيب السّائح"، في روايته الموسومة ب: " أنا وحاييم" والّتي تكشف عن أبعاد الخير والشّرّ في علاقات الآخر اليهوديّ، وتفصح عن جدل المركز والهامش، من خلال عرضه لقصّة صداقة بين شخصية جزائريّة مسلمة، تتمثّل في" أرسلان حنفي" ابن القايد و"حاييم بنميمون"، يهوديّ من الأقليّات، محاولا منح الثّورة الجزائريّة أبعادا أخرى، تنبني على خلق فضاء إنسانيّ حاوٍ لكلّ الهويات، والعمل على منح الهامش فرصة استعادة مركزيته. و ارتأينا أن نستعين في دراستنا هذه ببعض المفاهيم الفلسفيّة ذات العلاقة بالإشكاليّة المطروحة، إضافة إلى بعض مقولات النّقد الثّقافيّ والدّراسات الثّقافيّة.

الكلمات المفتاحية: المركز، الهامش؛ الآخر؛ الحبيب السّائح؛ النّقد الثّقافيّ؛ الدّراسات الثّقافيّة.

Abstract : *In this research paper, we seek to highlight the position of the contemporary novel of the Jewish 'Other'. Our interest here is about the Jewish minority in Algeria during the Liberation revolution, and about revealing the secret relationship between of the ego 'I' with the 'Other', as well as, about the 'center' in the 'margin' by decoding the text and reading it in its historical*

*المؤلف المرسل

framework as created by the writer who attempted to reveal the circumstances of the events and the data produced by the revolution that prompt the reader to re-read it as a modernist achievement. In doing so, he tries to reveal the implied and textual ambiguities that the text does not explicitly state.

In this research paper, we attempt to work on one of the novels of the Algerian writer 'Habib Sayeh', in his novel 'I and Haim' which reveals the dimensions of 'good' and 'evil' in the relations of the Jewish 'other' and discloses the controversy of the 'center' and the 'margin', by presenting the story of friendship between an Algerian Muslim figure represented by 'Arslan Hanafi', the son of the leader 'Gaid', and 'Haim Benmimoun' a member of the Jewish minority. The writer tries to give the Algerian revolution other dimensions based on creating a human space that contains all identities, and working to give the 'margins' the opportunity to regain its centrality. We chose to use in this study some philosophical concepts related to the problem at hand, in addition to some statements of cultural criticism and cultural studies.

Key- words : *Center, Margin, Other, Habib Sayeh, Cultural Criticism, Cultural Studies.*

1. " الأنا " و" الآخر" في العنوان وعلاقته بالمتن:

يعدّ العنوان أوّل ما يصطدم به القارئ وهو يقتني روايته، قبل أن يحظى بالإطّلاع على عالم الرّواية الّذي يظلّ مجهولا لديه إلّا أن يتكلّف عناء قراءته بتأنٍ ورَويةٍ ، إذ يمثّل العنوان« حلقة التّعارف الأولى، لحظة التجسير الأساسية بين القارئ والنص من جهة، وبين ما هو مجهول(أو ما هو في طور التشكل) يتعرف عليه القارئ بالتدريج، ليصبح بعد ذلك المجهول معلوما من جهة ثانية[1].

تقدّم لنا عتبة العنوان الكثير من المعلومات لِما فيها من خصوبة، فهي خطاب مُفكَّر فيه تتعدّى مسألة أن تكون زينة أو حلية يزيّن بها الأديب عمله الأدبيّ، إذ تسمح لنا بكشف الكمّ الهائل من المتواريات، فلا يمكننا بأيّة حالة تجاوزُها لولوج عالم النّصّ مباشرة، نظرا للزّخم من المكنونات الّتي تفتح شهيّتنا وتحفّزنا على قراءة المتن وكشف خباياه.

وللعتبات وظائف عدّة وأهميّة كبرى، فالاهتمام بها يندرج ضمن سياق نظريّ وتحليليّ عام، دوره إبراز ما للعتبات من وظيفة في فهم خصوصيّة النّصّ، وتحديد جانب أساسيّ من مقاصده الدّلاليّة. فتحليلها يهدف إلى الكشف عن طبيعة العلاقة بين هذه العتبات، ومختلف أشكال

الخطابات، كما يهدف كذلك إلى استخلاص ما يربطها بالنّصّ ضمن بنية دلاليّة شموليّة تراعي سياق وشرط إنتاج الخطاب وتداوله.[2]

تتطلّب منّا قراءة أيّ عمل أدبيّ إذن تفكيك النّصوص الموازيّة، أو المحيطة وذلك لفهم مقاصد المؤلّف والمؤلَّف معا. فالعنوان بوصلة النّصّ يحدّد اتّجاهاته، إذ لا يمكن أن نوجّه قراءتنا توجيها صحيحا ما لم نتمكّن من قراءة عتباته المتنوّعة. فالعنوان يجعلنا نختصر المسافة بيننا وبين المتن، ويضع صوب أعيننا الملامح الأولى للمقروء، ويفتح أبواب التّأويل، فتتعدّد القراءات ولكنّها في واقع الأمر يصبّ مجملُها في المتن الّذي تتشكّل هويّته عن طريقه والعكس قد يكون صحيحا أيضا.

إنّ الوقوف على عتبة العنوان في هذا المقام من الأمور الّتي تفرض نفسها وبشدّة نظرا للشّحنات الدّلاليّة الّتي يحملها عنوان الرّواية:" أنا وحاييم" وما له من علاقة بالإشكاليّة المطروحة في هذه الدّراسة، فهو يبرز وجود طرفين اثنين: الأنا والآخر، في انتظار كشف الأنساق المبثوثة في ثناياه ومعرفة من يشكّل المركز والهامش، أو أنّ كلاهما في كفّة واحدة مقابل" آخر" يعلو بسلطته وجبروته عليهما؟

يكون "الأنا" مقابلا لـ " الآخر"، فهما وجهان لعملة واحدة، لا يمكن الفصل بينهما، فهما متلازمان، إذ إنّ الذّات تثبت وجودها من خلال تداخلها وتواصلها وتشابكها مع الآخر. فالعنوان: "أنا وحاييم" يتكوّن من اسمين: ضمير المتكلّم المفرد "أنا" الّذي يحتلّ المركز الأوّل والّذي لم يفصح الكاتب عن هويّته إلّا في المتن، إذ إنّ "أنا" يمثّل شخصية " أرسلان" ابن القائد الإقطاعي الّذي يمثّل صوت الذّات السّاردة في الرّواية وقد أورد الكاتب على لسان أرسلان يقول: « عليّ أن أقول إنّي انتظرت طويلا كيما أحوز ثقة والدي فيّ. فرجل مثل القايد حنيفي، لصرامته وصلابته، حتى مع نفسه في لباسه وحديثه ومشيته وأكله، ظل يتمتع بصبر ثقيل ونافذ على غيره حتى يضعه موضع اختبار. كنت أنا النّجل، أحدس ذلك منذ أن التحقت بالثانوية.»[3]

يصرّح "أرسلان" في هذا المقطع بأنّه ابن القايد حنيفي، الّذي يتميّز بمجموعة من المواصفات الّتي جعلت النّجل يخافه ويحسب له حساب، فهو لا يجرؤ على الحديث إليه في أموره الشّخصيّة، إلّا عن طريق والدته الّتي كانت همزة وصل بينهما ، رغم أنّ الأصداء الّتي كانت تصل أرسلان تخبره بأنّ

والده القايد كان يفتخر به في المجالس وكان واثقا من نجاحه في دراسته كغيره أقصد، ها هنا أبناء الأقدام السّود واليهود.

يقابل حضور الضّمير"أنا" العائد على أرسلان حنيفي كما أسلفنا الذّكر اسم "حاييم" الّذي رأى الحبيب السّائح أن يبرزه منذ البداية، رغم أنّ استحضار هذا الاسم بهذه الصّورة يضع القراء عامّة والقارئ الجزائريّ خاصّة أمام مجموعة من التّساؤلات، كون الاسم "حاييم" غير متداول وغير معتاد في الأسماء الّتي تشكّل الهوية الثّقافيّة الجزائريّة. فالعنوان يحمل نوعا من الإبهام سواء في إيراد ضمير المتكلّم "أنا" أو إيراد الاسم" حاييم"، فحاييم يمثّل في هذا المقام " الآخر اليهوديّ"، ومصطلح الآخر من المصطلحات الّتي شاعت في الدّراسات ما بعد الكولونياليّة والّذي« يعني كلّ ما هو(غيري) أي ما هو خارج نطاق الذّات، والحداثيون في ترويجهم للحداثة ومَنْ بعدهم يرون أن الحداثة وما بعدها يمثلان النظرة الأرقى للآخر»[4] . فما الصّورة الّتي رسمها الحبيب السّائح في روايته لليهوديّ حاييم؟ و ما حقيقة علاقته ب"أنا" الّذي يمثّل كما أسلفنا الذّكر أرسلان الجزائريّ ابن القايد؟

لم يستبعد الحبيب السّائح مسألة التّعايش وقبول الآخر وذلك من خلال الرّبط بين الاسمين بحرف العطف" الواو" الّذي يدلّ على مطلق الجمع بين شيئين، ومن جهة أخرى أقام فجوة بين الأنا والآخر، من خلال تقديم أحدهما على الآخر، فنتساءل: من يكون التّابع ومن يمثّل المتبوع؟ ومن يعدّ مركزا ومن يكون الهامش في هذه الحالة؟

يقول شاكر عبد الحميد:« " الآخر" قد يكون أحد الأفراد و قد يكون جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم." فالآخر" قد يكون قريبا و قد يكون بعيدا. وقد يكون صديقا وقد يكون عدوّا. وقد يكون عدوا تفكر فيه في أنسب الوسائل للتعامل معه»[5]

لم يعلن الكاتب في العنوان عن تلك الصّداقة الّتي تربط أرسلان بحاييم، وترك مسألة إبراز حقيقة علاقتهما للمتن. إنّ ما طرحه الحبيب السّائح في العنوان، هي مسألتي الأنا والآخر، فذِكر الاسم" حاييم" يبعث على التّساؤل. فهل يكون غرضه محو تلك المسافات الّتي خلقتها

الأيديولوجيات والدّين والثّقافة...؟ أم أنّه تعمّد أن يذكر حاييم لتأكيد قابليّة العيش مع الآخر في سلام ووئام مع وجود اعتبارات أخرى؟

يجرّنا العنوان" أنا وحاييم" إلى طروحات عدّة، وذلك من خلال كشف الأنساق المضمرة النّاوية وراء ألفاظه، ف" أنا" ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ ونقدّر خبره محذوفا، مفردا متمثّلا في لفظ" موجود"، أو جملة فعليّة محذوفة " أعيش مع حاييم" وفي الوضعين نجد الذّات أوّلا مقابلة الآخر الّذي يأتي تابعا، فحاييم يمثّل الشّخصيّة اليهوديّة، عميل من عملاء فرنسا، ينتمي جغرافيّا إلى الأرض الجزائريّة المسلوبة حسب ما أورده الرّوائيّ من أحداث في المتن. فالكاتب يقدّم في هذه الحالة الأصل على الفرع دون التّفكير فيما يجمع الشّخصيتين من علاقة لا تتّضح إلّا مع متابعة المسار السّرديّ لأحداث الرّواية.

إنّ مسألة الوعي بقبول الآخر مسألة مطروحة في العنوان، فالكاتب لم يستبعد وجود الآخر، بل ربط وجود"الأنا" بوجود" الآخر"، وإن أعطى الأولويّة للأنا الممثّلة للذّات السّاردة في الرّواية، والّتي تعيش على أرض سلبها مستدمر فرنسيّ يسعى إلى بناء مركزيته المبنيّة على الهيمنة والتّسلّط وطمس الهويات، إلّا أنّنا لا نجده يقصي الآخر اليهوديّ الّذي يعيش المأساة نفسها بصورة مغايرة لا تستبعد كونه هامشا لا مركزا، فظهور حرف العطف" الواو" يكشف عن نسف مضمر ينمّ عن قبول الآخر مبدئيا أو الاعتراف بوجوده مستبعدا في ذلك مسألة إلغائه رغم تهميشه.

يبدو من خلال العنوان أنّ "أنا" يحتلّ المركز و"حاييم" الهامش، ولا يمكننا هنا أن نجزم بصحّة هذا الحكم إلّا بعد ولوج عالم الرّواية، فوحده المتن يمكنه تقديم تفاصيل أكثر حول المسألة، فهل سيفصح عن علاقة قبول الآخر رغم مركزيّة الأنا أو أنّه سيكشف عن رفضٍ وتهميشٍ واضطهادٍ؟

تنقل الرّواية أحداثا جرت أبان الثّورة التّحريريّة الجزائريّة، أين التقت الشّخصيتين "أرسلان" و"حاييم" في علاقة صداقة متينة، فريدة من نوعها وذلك أنّها جمعت بين جزائريّ مسلم ويهوديّ من عملاء فرنسا على أرض مسلوبة، محتلّة.

يسترجع أرسلان أهمّ الذّكريات والمواقف واللّحظات الجميلة والأيّام السّعيدة الّتي عاشها رفقة صديقه اليهوديّ حاييم، تلك الذّكريات الّتي تنمّ عن علاقة ودّ وحبّ كانت تجمع الصّديقين

وعائلتيهما منذ أن كانا صغيرين إلى أن بلغا معا أحداث ثورة التّحرير الّتي أثبتت ولاء حاييم لصديقه أرسلان حنفي وأكّدت نوايا حاييم الّذي وقف مع الحقّ رغم أنّه كان باستطاعته أن يظهر ولاءه لفرنسا لا لجبهة التّحرير« وعلى بعد أمتار– كانت ثلاثين عدّاً بخطواتي الصّغيرة قبل سنين–وقفت، على الرّصيف المقابل، وقفة لم أقفها من قبل، محزون الخاطر، أمام دار حاييم بنميمون تبدو ساكنة مثل كائن تحجّر ملتفة على فراغ بات يسكنها منذ أطاح الدّهر، قبل ثلاثة أشهر،بآخر أهلها الغابرين»[6]

تعدّ إشكاليّة "الأنا" و"الآخر" من الإشكاليّات الفلسفيّة الّتي طرحت مع الفلسفات اليونانيّة وظلّت تطرح جدلا غير منتهٍ حتّى في ظلّ الفلسفات الحديثة والمعاصرة، وما نلاحظه أنّ الحبيب السّائح قوّض تلك الفلسفات الّتي مجّدت الذّات(الأنا) وأسقطتها في أنانيّة حادّة محتقرة في المقابل(الآخر)، فأرسلان لم يعتبر نفسه يوما مختلفا عن حاييم بل تعايش معه سلميّا وكذلك فعل حاييم. وأكبر دليل هو أنّ حاييم وقف إلى جانب الحقّ وساند الثّورة التّحريريّة ولم يأخذ بعين الاعتبار كونه تابعا لفرنسا أوعميلا لها. ورغم ما فعله حاييم إلّا أنّ بعض الجزائريّين لم يرضوا ببقائه بعد الاستقلال وأحرقوا صيدليته الّتي كانت مصدر رزقه. وقد تأسّف أرسلان لهذا الحدث، ووقف إلى جانب صديقه، ويحاول الكاتب هنا، تمثّل المفارقة الموجودة بين أرسلان وبقية الجزائريّين الّذي لم يروا حاييم إلّا يهوديّا، عميلا فرنسيّا ولم يراعوا تلك التّضحية الّتي ضحّاها من أجل استعادة الجزائر لسيادتها، وهنا يظهر جانب آخر من تاريخ الأقليّة اليهوديّة في الجزائر، والنّظرة السّلبيّة إلى الآخر.

تتخلّى صورة اليهوديّ في الرّواية صدد الدّراسة عن نمطيتها المألوفة والمعتادة، إذ إنّ قارئ هذه الرّواية يجد شخصية "حاييم"، شخصية طيّبة، محبّة للغير مهما كان مختلفا عنه، واضعا خلفه كلّ الاعتبارات الدّينيّة والأيديولوجيّة والعرقيّة...إذ طغت عليه النّزعة المسالمة، فرغم تبعيّته لفرنسا وديانته اليهوديّة إلّا أنّه ظلّ محايدا، إنسانيّا في علاقته مع " أرسلان"، وهكذا نظر" أرسلان" إليه وعامله بالمثل ولم يعتبره إلّا صديقا حميما يتشارك معه الأوقات السّعيدة والعصيبة، وأكبر دليل على ذلك تأثر" أرسلان" بفراق "حاييم" واسترجاع كلّ الذّكريات الّتي جمعته به«... أثارت حنيني إلى جلوسي معه على طاولة واحدة...»[7]

انسلخت صورة " الآخر اليهوديّ" في رواية أنا وحاييم" عن تلك الصّورة السّلبيّة الّتي رافقتها في الآداب الكلاسيكيّة والّتي رافقت كذلك مخيّلة المتلقّي العربيّ، وأخذت منحى جديدا، غالبا في الرّواية رغم وجود صور أخرى ثانويّة مثّلتها الأقليّة اليهوديّة الّتي اختارت الهجرة إلى فلسطين بعد استقلال الجزائر، عكس الخيار الّذي كان لـ" حاييم" الّذي فضّل أن يموت على أرض شارك في تحريرها بطريقة أو بأخرى، فأرسلان وحاييم مثّلا " الأنا والآخر" في إطار مخالف عمّا سبق بعيدا عن الموقع الصّداميّ والصّراعيّ، وهو إطار التّعايش السّلميّ وإعادة تشكيل الهوية المشتركة بين جميع البشروالشّعوب وهي هوية "إنسان"وهذا ما عمل على محو حدود المركز والهامش.

جسّد الحبيب السّائح فلسفة " إيمانويل ليفيناس" الّذي أسّس لعلاقة" الإتيقيّة وقد بيّن العلاقة بين " الأنا والآخر". ليفيناس الّذي دعا إلى خلق علاقة تواصل ومشاركة، علاقة تقوم على المحبّة المتبادلة والإخاء، علاقة روحيّة تكون بعيدة عن كلّ الصّراعات والنّزاعات، علاقة تقوم على الاعتراف بالآخر والتّواصل معه.

يركّز إيمانويل لفيناس في فلسفته على العلاقة الأخلاقيّة الّتي تقوم على الاعتراف بالآخر مهما كان[8]، فأرسلان لم ينظر إلى حاييم على أساس أنّه يهوديّ متجنّس بجنسيّة فرنسيّة، وحاييم أيضا لم يعتبر أرسلان إلّا صديقا يمكن الاعتماد عليه في أيّ وقت وحين، ويتأكّد ذلك من خلال وقوف حاييم إلى جانب الثّورة التّحريريّة الجزائريّة كما أسلفنا، ومساندة الثّوار الجزائريّين وتسخير صيدليته لخدمتهم وإيمانه بشرعية الثّورة الجزائريّة رغم تبعيّته لفرنسا. و في الرّواية ما يدلّ على تلك الشّرعيّة، حيث ورد على لسان السّارد« بينما انبعثت من بين المتجمهرين أصوات:"

لماذا لا يرحل مثلهم!"

"ولكنّه لم يؤذ أحدا"

" يقال إنّه كان يرسل الدّواء للجبل"

" و لهذا أحرقت OAS صيدليته"...

" السّيّد حاييم بنميمون هذا الّذي جاء هؤلاء الأشقياء ليعتدوا عليه و يسطوا على بيته أصبح جزائريّا مثلكم، مثلي، مثل هذه المرأة أمامكم" قلتُ للمتجمهرين الّذين بدوا الآن أكثر

انتباها"... " هل فيكم واحد مثل السّيّد حاييم خاطر بحياته ورزقه من أجل أن يصبح الحلم بالحريّة حقيقة كما ترونها اليوم؟"»[9]

مثّل كلّ من "حاييم" و" أرسلان" الواجهة المفقودة للهويّة الإنسانيّة، و الّتي يسعى الحبيب السّائح لبنائها من جديد في ظلّ كلّ ما انجرّ عن تداعيات العولمة وما بعد الحداثة من أمور تدعو إلى النّظر من جديد إلى كلّ ما يحيط بالإنسان من خطر السّقوط في الصّدامات والصّراعات في زمن بدأت فيه القيم تتلاشى وتفقد مركزيتها مثلها مثل الإنسان. فالّذي شكّل جزائريّة "حاييم" ليست الهويّة الدّينيّة ولا الورقيّة الّتي لا تَمُتُّ للأخلاق ومبادئ العلاقات بصلة، إنّما أخلاق حاييم الّتي انبهر بها "أرسلان" ، وهذا ما يظهر في مقطع يطلب فيه " أرسلان" من "حاييم" ما هو فاعل بالّذين هاجموه، فأورد «" أسأل السّيّد حاييم ماذا يرى أن نفعل بهؤلاء الأشقياء؟"

تأمّل حاييم الثّلاثة الّذين قُيّدت أيديهم إلى خلف ظهورهم بأحزمة جلديّة. كنت أتابع كيف رفع له الزّعيم نظرة استرحام–كان حاييم سيقول لي عنها لاحقا إنّها ذكرته بذاك التّلميذ المشاغب الشّرس والقاسي في مدرسة جول فيرّي.

ثمّ التفت إليّ مبتسما نصف ابتسامة:" أطلق سراحهم!".

فارتفع هتاف" تحيا الحريّة " متضخّما، متناغما ممتدّا عبر شارع الدّرب الضّيّق.»[10]

تَمَثَّل الحبيب السّائح " الآخر اليهوديّ" في صورة إنسان رحيم على الغير، حتّى وإن كان هذا الغير معتدٍّ عليه، فهو ممّن يقابلون السيّئة بالحسنة، وهذا بادٍ في طلب إطلاق سراح من أحرقوا صيدليّته واعتدوا عليه.

يدعو الكاتب من خلال عمله الرّوائيّ إلى ترسيخ فكرة التّعايش السّلميّ، المبنيّة على مبدأ الحوار، فهل يمكن استبعاد إنسان وُلد في أرض وترعرع فيها وكافح من أجلها من دائرة التّاريخ الجزائريّ فقط لأنّه ليس جزائريّا ولا مسلما؟

إنّ ما يجمع " الأنا" و" الآخر" في هذه الرّواية شيء واحد، وهي المقاومة ضدّ مستدمر غاشم، " آخر" مغتصب لأرض ليست ملكه، " آخر" مثّل المركز بجبروته وطغيانه، ففي الوقت الّذي

التحق فيه" أرسلان" بالثوار، فعل" حاييم" الأمر ذاته بطريقة مغايرة، إذ وفّر الدّواء للجرحى من المجاهدين، ووضع صيدليته تحت تصرّفهم، وقام بإنقاذ" زليخة" الّتي تزوجت صديقه فيما بعد.

نلحظ في الرّواية هذه العلاقة الفريدة من نوعها بين اليهوديّ والمسلم اللّذان جمعتهما نفس الظّروف و قرّرا أن يسيرا معا في طريق واحدة من أجل تحقيق وجودهما وتحدّي كلّ العراقيل، فكان أصحاب الأحذية السّوداء(فرنسا) ينظرون إلى حاييم وأرسلان بنفس نظرة الاحتقار على أنّهما مختلفين، عدوّين.

يقول أرسلان عن طريقة استقباله من طرف الفرنسيّ في مكتب التّسجيل للدّخول إلى الجامعة:«... لما ألقى الموظّف الآخر الجالس إلى الطّاولة المستطيلة الثّالثة، نظرة ريبة عليّ،... لا أنسى السّاعة ولا المكان ولا الوجوه- مع الّتي رازها في صورة ملف تسجيليّ قبل حين. ثمّ فصل وثيقة عقد الميلاد، من بين بقية وثائقي الأخرى، وهزّها إلى أعلى بيد واحدة. وسألني دون أن يرفع إليّ عينا:" أنت هو أغسلان هنيفي؟" من غير أن ينطق صفة السّيّد» .[11]

نلاحظ من خلال هذا المقطع كيف أنّ المستدمر الفرنسيّ لا يتعامل مع جميع الطّلبة بالمعاملة نفسها ، فالنّظرة الدّونيّة بارزة في تعامل الموظّف الإداريّ مع " أرسلان" الّتي تبرز نظرة احتقار فرنسا للمواطنين الجزائريّين وإن كانوا من المتفوّقين. فبالنّسبة لهم هم مجرّد وحوش لا تستحقّ أن تُخاطب بلباقة، إذ في عدم النّطق بكلمة السّيّد وعدم رفع الموظّف عينيه إلى أرسلان وهو يكلّمه على حدّ تعبير الكاتب يتوارى نسق مضمر يدلّ على نظرة المستدمر الفرنسيّ للأهالي الجزائريّين، إذ لا يمثّلون بالنّسبة لهم إلّا مُستعبَدين لا حقّ لهم في التّعليم و تحصيل المعرفة.

إنّ حضور الآخر قد يكون في اتّجاهين اثنين، قد يكون إيجابيّا كما هو الأمر فيما يخصّ حاييم في علاقته بأرسلان و بقية الجزائريّن، كما يمكنه أن يكون سلبيّا إذا كان حضوره حضورا طاغٍ يسعى إلى احتلال المركز، فيمسي هو الذّات الطّاغيّة في مقابل الآخر المهمّش مثل ماهو حال فرنسا مع الجزائريّين أبان الثّورة التّحريريّة، وحال شعوب أخرى لاتزال إلى حدّ الآن تعاني الأمرّين من جراء الجشع و حبّ الذّات والسّعي وراء إلغاء الآخر من الوجود.

2- المركز والهامش وتقويض النّزعة الاستئصاليّة:

تتجسّد في الرّواية فكرة الأقليّات اليهوديّة في الجزائر أبان الثّورة التّحريريّة، إذ يروي لنا السّارد تلك الذّكريات الجميلة الّتي جمعته بحاييم هذا الّذي مثّل فئة اليهود الجزائريّين الّذين رفضوا الانخراط في المشروع الصّهيونيّ، وفهموا المواطنة بعيدا عن أيّ تشنّج دينيّ أو تعصّب طائفيّ، إذ استرجع تلك المواقف الّتي جمعته بحاييم الّذي تعامل مع "أرسلان" الجزائريّ ابن القايد معاملة أخويّة تركت في قلب أرسلان بصمة لم يستطع محوها حتّى بعد أن توفيّ حاييم.

تعكس الرّواية منحى الأديولوجيات الغاصبة الّتي تعمل جاهدة على محو الآخر من الوجود لفرض ذاتها و بناء كيانها على حساب الآخر، إذ إنّ فرنسا سعت إلى فرض هيمنتها على الجزائريّين واكتساب هويّة غير مشروعة قائمة على النّهب والاستغلال، وهدم القيم وطمس هويّة الجزائريّين الّذين نعتتهم ب" الأنديجان" أي مواطن من الدّرجة الثّانية لا يستمتع بنفس الحقوق. فهل يعقل أن يعيش الإنسان في أرضه تابعا، مهمّشا في حين يحتلّ المستدمر المركز بلا جدارة ولا استحقاق؟

تظهر النّزعة الاستئصاليّة بشدّة في السّياسات الّتي مارستها فرنسا في الجزائر، إذ حرمت الجزائريّين من أدنى حقوقهم المشروعة، وعملت على جعل الجزائر فرنسيّة، وحاربت بذلك الدّين الإسلاميّ واللّغة ومارست سياسة الإدماج، وهذا ما دفع بالجزائريّين إلى الثّورة ضدّ هذه السّياسة القمعيّة الّتي تحارب المواطن وتحاول أن تقتلع جذوره، بمقابل كسب هويّة أخرى مفروضة.

حاول الحبيب السّائح في روايته إذن أن يعيد قراءة التّاريخ، ويرسم مخطّطا آخر ويبني تاريخا جديدا للثّورة و«لاشكّ أنّ هذه الرّواية، لا تعكس موقفا فرديّا من المؤلّف إنّما هي تجسيد لتمثّل مغاير بدأ يفرض نفسه كنسق في الرّواية الجزائريّة والعربيّة، فالسّائح يكتب في ظلّ هذا النّسق الفكريّ الجديد الّذي يهيمن على الثّقافة العربيّة، وهو الاتّجاه المهيمن الّذي يدخل في تحقيق مشروع ثقافيّ عالميّ، يدعو إلى التّعايش، وتختلف استراتيجيات الرّوائيّ، فمنها ما يدخل ضمن استعادة الهويّة ومنها ما يعمل على تقويضها، وآخر يسائلها ليثوّر مَواطن القوّة فيها.»[12]

لم يعش " أرسلان" غربة مع حاييم، مثلما عاشها في وطنه المسلوب، تحت وطأة المستدمر الفرنسيّ، وكان حاييم الّذي ينتمي إلى مدرسة فرنسا بالجنسيّة مخالفا لها في تعامله مع الجزائريّين خاصّة

أرسلان، إذ تمثّله الكاتب شخصيّة يهوديّة، متخلّقة، مساندة للثّورة الجزائريّة، لم يمثّل المركز بل الهامش وهذا ما أوردته الدّكتورة آمنة بلعلى في مقال لها إذ تقول:« لقد رسم لنا السّايح دورا لليهوديّ مشيّدا ثقافيّا في فضاء التّهميش، فأبقاه وحيدا ومات وحيدا بالسّرطان داخل النّسيان، والصّمت، ولذلك، بدا البيت المهجور الصّامت الّذي استهلّ به الرّواية هو نفسه القبر الّذي انتهت إليه حياته، لقد حصره بين بيت وقبر، و لم يمكّنه من امتلاك وطن، لا بالإبقاء على انتمائه لوالده، ولا ترك وراءه وريثا يضمن له ذلك الامتلاك، و لعلّ انتهاء حكايته بالموت، تستجيب لانتهاء الدّور الّذي أنيط به، و كأنّه جاء فقط من أجل تحسين صورة اليهوديّ، للإيهام بالوطنيّة و التّاريخيّة، و بانتهاء هذه الوظيفة، انتهت حياته.» [13]

لقد مثّل حاييم روح الوطنيّة وجسّد الكاتب في عمله الرّوائيّ فكرة إعادة كتابة التّاريخ والمسكوت عنه، إذ إنّ الكاتب رسم له دربا مختلفا من أجل كسر فكرة التّطرّق لموضوع اليهوديّ الّتي تعدّ من المسائل" الطّابو" أي المحظورة، فهو في روايته يقوّض فكرة اليهوديّ العدوّ، ويؤمن بقيم التّعدّدية ويقوّض النّزعة الاستئصاليّة، ولاشكّ أنّ الحبيب السّائح من خلاله طرحه هذا يتطرّق إلى أهمّ الأمور الّتي وقفت عائقا أمام بناء دولة حديثة تقبل الآخر مهما كان مختلفا. وقد منحنا فرصة قراءة الثّورة التّحريريّة كحدث إنسانيّ يتجاوز كلّ الأيديولوجيات والاختلافات مهما كانت أبعادها.

رغم كلّ شيء تبقى العلاقة بين حاييم وأرسلان علاقة مثاليّة، فريدة من نوعها كما تمثّلها الكاتب. يقول أرسلان في حادثة إحراق الصّيدليّة«... للنّبرة المنكسرة الّتي نطق بها حاييم رجاءه، أحسست أنّه ما كان عليّ أن أثير شجنه ...لا أحبّ لك، في ظروف الخروج من الحرب الّتي يعرفها البلد،أن تنتظر مزيدا من الوقت أي تعويض قد لا يأتي وإن هو أتى فلن يكون إلّا زهيدا". فضغط قليلا على يدي، مقاوما رعشة، كتلك الّتي تسبق البكاء." أنت تعرف أنّه ليس لي صديق سواك" — سنكون كما كنّا دوما لبعضنا.» [14]

ما يبرزه هذا المقطع هي النّتيجة المتوقّعة من تلك الصّداقة المتينة بين الشّخصيتين وكذا ما عامل به حاييم أرسلان لسنوات خلت، حيث أظهر أرسلان استعداده لفداء صديقه بالمال والتّضحية من أجله، الأمر الّذي زاد صداقتهما قوّة ومتانة، وظلّا يحميان بعضهما البعض إلى النّهاية.

إنّ الوعي ب" الآخر" يسمح بوضع حاجز أمام تلك المسافات الّتي تخطّها بعض الجهات الهادمة لأسس الإنسانيّة بخطوط حمراء، تُدخل مستقبل البشريّة في دوامة الخطر. فنموذج اليهوديّ هنا لم يمثّل إلّا نموذجا للآخر المثاليّ، الإنسانيّ الّذي يستحقّ المركز عن جدارة، خاصّة مع كلّ الرّهانات الّتي يعرفها العالم حاليّا.

يتطلّب بناء مسار السّلام بين الشّعوب بأن توحّد صفوف البشر وأن يعاد النّظر في المفاهيم: "الأنا" و" الآخر"، " المركز" و" الهامش" والعمل على استئصال كلّ نوازع الشّرّ، ووضع حدّ للصّراعات الّتي مافتئت فتك بالإنسان وتدمّر كيانه وتحرمه من أدنى حقوقه المتمثّلة في العيش في كنف طبيعة خالية من الضّغائن والعداوات الّتي أرستها الماديّات المعاصرة والعولمة والعمل على تقويض فكرة التّشيؤ الّتي أولدتها فلسفات ما بعد الحداثة.

جدير بالإنسان المعاصر إذن أن يعيد قراءة ذاته ويفهم أنّ العيش في كنف السّلام لا يكون إلّا بتقبّل " الآخر"، ويُبطل بذلك كل المشاريع الهادمة الّتي تمنح المركزيّة للبعض وتهمّش البعض الآخر.

لا يسعنا في الآخير إلّا أن نقول، بأنّ الحبيب السّائح قد أعاد الاعتبار لـ " الآخر" اليهوديّ بعد أن كان الحديث عن اليهود من المسكوت عنه أو" الطّابو"، لوجود اعتبارات ، عرقيّة، دينّيّة ...

صنع الحبيب السّائح من شخصية الجزائريّ أرسلان واليهوديّ حاييم شخصيتين متوافقتين عاشتا معا منذ الطّفولة في أريحية وحبّ ووئام، وأبرز وجوب التّفاعل بين الدّيانتين الإسلاميّة واليهوديّة من خلال أنموذج التّعايش بين عائلتي حاييم وأرسلان، وقام من خلال ذلك بقراءة فكرتي الهامش والمركز قراءة جديدة.

جسّد الحبيب السّائح العلاقة بين" الأنا" و" الآخر" ابتداء من عتبة العنوان " أنا وحاييم" إلى غاية نهاية الرّواية، إذ تكرّرت جملة" أنا وحاييم" في كالمسار السّرديّ للرّواية وجعلها محور عمله، وكأنّه يريد بذلك التأكيد على إعادة النّظر إلى" الآخر اليهوديّ" من وجهة نظر إنسانيّة بعيدا عن أيّ اعتبار قد يخلق فجوة أو صدام، وما نلاحظه أنّ صوت السّارد انتقل في الرّواية من الحديث ب" أنا" إلى الحديث ب" نحن" و ذلك يبرز التّشارك الّذي كان بين الشّخصيتين في وجود " آخر مختلف" احتّل

المركز وهو المستدمر الفرنسيّ. وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على رغبة الكاتب الشّديدة في إظهار تلك العلاقة الأخلاقيّة الّتي تجمع بين مختلفين من أجل تشكيل جسد واحد وهويّة واحدة، وهي: هويّة " إنسان"، وهما يشكّلان بذلك الهامش مقابل المركز الّذي تمثّله فرنسا.

إنّ وجود الأقليّة اليهوديّة في الجزائر أمر لم ينفِه التّاريخ، ولم يغفل عنه الحبيب السّائح، واعتبر" الآخر اليهوديّ" جزءا لا يتجزّأ من التّاريخ الجزائريّ، ومكوّنا أساسا مشاركا في تشكيل الهويّة الثّقافيّة والتّاريخيّة والاجتماعيّة لهذا البلد، الّذي عرف هو الآخر تهميشا في مرحلة من مراحل تاريخه.

حرّر الحبيب السّائح " الآخر اليهوديّ" من صورته السّلبيّة الّتي إلتصقت بذهن القارئ العربيّ، وأخذت فكرة " الآخر" هنا اتّجاها ينمّ عن ضرورة الوعي به، وضرورة إعادة الاعتبار لمركزيّته، فالآخر يأتي كمفهوم تكوينيّ أساس للهويّة، فلا يمكن تحديد هويّة دونه ويأتي كذلك كمفهوم قيميّ، أخلاقيّ، فإمّا أن يكون مقبولا أو مرفوضا، طيّبا أو سيّئا ونجد أنّ الحبيب السّايح ركّز على الاثنين، أي أنّ حاييم اكتسب شرعيّة الهويّة الجزائريّة من خلال المفهوم الثّاني القيميّ والأخلاقيّ، مرّة لما قبل بأرسلان كأخ وصديق، وأخرى حين وقف مع الحقّ وساند الثّوار، وهو لم يكن إلّا عميلا من عملاء فرنسا.

الهوامش:

[i] – عبد المالك اشهوبن، العنوان في الرّواية العربيّة، محاكاة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، دمشق، سوريا، ط1،2011،ص11.

[2] – عبد الفتّاح الحجمريّ، عتبات النّصّ–البنية و الدّلالة–،منشورات الرّابطة، الدّار البيضاء،ط1،1996 ،ص07.

[3] – ينظر: الحبيب السّائح، أنا وحاييم، دار ميم للنّشر، ط1، الجزائر، 2018، ص 52.

[4] – سمير الخليل، دليل مصطلحات الدّراسات الثّقافيّة والنّقد الثّقافيّ، دار الكتب العلميّة، دط، بيروت، ص9.

[5] –عمرو عبد العلي علام، الشّخصية العربيّة والشّخصيّة الإسرائيليّة..، دار العلوم للنّشر والتّوزيع،ط1،2005،، مصر، ص12.

[6] – أنا وحاييم، ص 11

[7] – أنا وحاييم، ص13

[8]- الأنا والآخر في فلسفة ليفيناس http://dspace.univ-msila.dz:8080//xmlui/handle/123456789/16710 .

[9] – ينظر: أنا وحاييم، ص 226.

[10] – ينظر: أنا و حاييم، ص 227.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الحبيب السّائح، أنا وحاييم، دار ميم للنّشر، ط1، الجزائر، 2018.
2. سمير الخليل، دليل مصطلحات الدّراسات الثّقافيّة والنّقد الثّقافيّ، دار الكتب العلميّة، دط، بيروت.
3. عبد الفتّاح الحجمريّ، عتبات النّصّ–البنية و الدّلالة–،منشورات الرّابطة، الدّار البيضاء،ط1 ،1996 .
4. عبد المالك اشهوبن، العنوان في الرّواية العربيّة، محاكاة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، دمشق، سوريا، ط1،2011.
5. عمرو عبد العلي علام، الشّخصية العربيّة والشّخصيّة الإسرائيليّة..، دار العلوم للنّشر والتّوزيع،ط1،2005،، مصر.
6. الأنا والآخر في فلسفة ليفيناس http://dspace.univ-msila.dz:8080//xmlui/handle/123456789/16710